الإشارات الدينيَّة في شعر امْرِئ القَيْس وأثرها في قضيَّة الشِّعر المَنحُول

بحث من إعداد

الدكتور نادي حسن شحاتة

أستاذ مساعد الأدب والنقد بقسم اللغة العربية

كلية التربية والآداب بتربة

جامعة الطائف

مشكلة البحث:

اختلط الأمر على كثير من دارسي الشِّعر الجاهليّ بسبب ورُود إشارات متلوِّنة عن الدِّيانات المختلفة في شِعر امْرئ القَيْس، وبناءً على هذه الإشارات نُسب امْرُؤ القَيْس تارة إلى الوثنيَّة وأخرى إلى اليهوديَّة وثالثة إلى النصرانيَّة، كما جاءت إشاراتٌ حَنيفيَّة وأُخرى تحمل رائحة الإسلام من بعيد ومن قريب. وقد أثارت هذه الإشارات عِدَّة قضايا دارت حول المحاور الثلاثة الآتية:

- ديانة امْرئ القَيْس.
- مَدَى تصوير الشاعر للحياة الدِّينيَّة في عصره.
- تفسير الإشارات الإسلاميَّة في شِعر امْرئ القَيْس.

ومن هنا يحاول البحث – من خلال شعر الشاعر- أن يَسْتقرئ الحياة الدينيَّة التي عاش فيها الشاعر، ثُمَّ يتعرَّض للإشارات الإسلاميَّة الواردة في ديوان الشاعر، ويُبيِّن كيف قرأها النقَّاد والباحثون ووجَّهوها تجاه الشِّعر المنحُول، ثم يُعيد الباحث قراءة هذه الإشارات ويوجِّهها نحو الدلالة الأقرب للنصِّ والظروف التاريخيَّة والثقافيَّة، مُبتعدًا بها عن الأحكام العامَّة التي صدرت عن بعض المستشرقين ومن تابعهم من النقَّاد العَرب في العصر الحديث.

ويعالج البحث المحاور الثلاثة السابقة من خلال ما ورد في ديوان الشَّاعر عن الأديان الآتية:

أ- الوثنيَّة.

ب- اليهوديَّة.

ت- النصرانيَّة.

ث- الحنيفيَّة.

ج- عبادة النُّجوم والكواكب.

ح- الإشارات الإسلاميَّة في شِعر امْرئ القَيْس.

مدخل: الجاهليَّة والحياة الدينيَّة

قال ابن مَنْظور:"والجاهليَّة زمنُ الفترة ولا إسلام، وقالوا: الجاهليَّة الجَهْلاء فبالغوا... وفي الحديث: إنَّك امْرُؤ فيك جاهليَّة ، هي الحال التي كانت عليها العَرب قبل الإسلام من الجَهل بالله سُبحانه ورسوله وشرائع الدِّين والمفاخرة بالأنْساب والكِبْر والتَّجبُّر وغير ذلك، ... والجهل نقيضُ العلم،...وقولُه تعالى ﴿يَحْسبُهم الجاهلُ أغنياء﴾ يعني الجَهل بحالهم، ولم يَرد الجاهِل الذي هو ضِد العَقل، إنَّما أراد الجَهل الذي هو ضِد الخِبرة..."[١].

فالجاهليَّة - من كلام ابن مَنظور - يُراد بها الفترة التي سَبقت مَجيء الوحْي، وكانت تتَّسم بالجهل بالله ونبيِّه، والمفاخرةٍ بالأنساب والكِبْر والتَّجبُّر...، وهي نَقيض الخِبْرة الدينيَّة بالله سُبحانه وشَرائعه، كما كان يسودها العصبيَّة القبليَّة، وسِيادة قانون القَهْر والغَلَبة والظُّلم، وغير ذلك ممَّا يُنافي تعاليم الإسلام السَّمحة كالعدل والمساواة...، والجاهليَّة" اشْتقَّت من الجَهْل الذي يَعْني السَّفهَ والطَّيش والغَضب والنَّزَق، فالعربيُّ يغضب لأتْفَه الأسباب، ولا تزال هذه الصِّفة تلازمُه حتَّى يومِنا هذا تنمُّ عن أخلاق الجاهليِّين..." [٢].

أما فيليب حتِّي فيَرى أنَّ الجاهليَّة" هي ذلك العَصْر الذي لم يكُن لبلاد العَرب فيه نامُوس وازعٌ، ولا نبيٌّ مُلْهم، ولا كتابٌ مُنزَل"[٣].

وكان الناس في الجاهليَّة يطُوفون حَول البيت عُراة إلا أهلَ قُريش، فعَن هشام بن عُرْوة قال:" قال عروة: كان النَّاس يطوفُون في الجاهليَّة عُراةً إلا الحُمْس، والحُمْس قُريش ومَا ولَدتْ، وكانت الحُمْس يحتسبون على الناس، يُعطي الرَّجلُ الرجلَ الثِّياب يطوف فيها، وتُعطي المرأةُ المرأةَ الثيابَ تطوف فيها، فمَن لم يُعْطَ الحُمْسَ طاف بالبيتِ عُريانا"[٤].

وكانوا يأتون البيتَ الحرام من ظَهره، فعن البرَاء قال: "كانوا إذا أحْرَموا في الجاهليَّة أتوا البيتَ من ظِهره، فأنزلَ اللهُ (وليس البرُّ بأنْ تأتُوا البيوتَ من ظُهُورها ولكنَّ البرَّ مَن اتَّقى وائْتوا البيوتَ مِن أبوابها)" [٥].

ولم تكُن هذه الجاهليَّة عند شِبْه الجزيرة العربية مُطْبَقة وشاملة بل كانت متفاوتة، فالحُوار بين الإسلام والجاهليَّة - في مُجْمله – كان بين القرآن وأهل

---

[١] لسان العرب، مادة "جهل".

[٢] أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، جرجس داود داود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨١م، ص ١٦٦.

[٣] تاريخ العرب، فيليب حتي، إدورد جرجي، جبرائيل جبور، دار غندور، بيروت، ط٤، ١٩٦٥م، ص١١٧.

[٤] رواه البخاري، ٥٩٩/٢، برقم ١٥٨٢..

[٥] الآية من سورة البقرة، ١٨٩، والحديث رواه البخاري.

مَكَّة وأهل المدينة، أما بقيَّة العَرب فكانوا بعيدين عن ميْدان الصِّراع إلا قليل منهم، لكنْ على الجُملة كان هناك تشوُّش في حياة العَرب الدينيَّة ، ما بين الدِّيانات السَّماويَّة التي دخلتْ الجزيرة العربيَّة كاليهوديَّة والنَّصرانيَّة، وما ورثه العَرَب عن دين إبراهيمَ عليه السَّلام، وما استحدثُوه من عِبادات لم يُنزِّل الله بها من سُلطان؛ لهذا كانت البيئة العربيَّة قبل الإسْلام خليطًا من ديانات مُتعدِّدة سماويَّة ووثنيَّة وغيرهما، وقد بدا ذلك جَليًّا فيما جاءَنا من شِعرهم ونثرهم.

وحين نَسْتَعْرض دِيوان امْرئ القَيْس نجدْ فيه إشاراتٍ إلى بعض مظاهر هذه الحياة الدينيَّة في الجاهليَّة، دون أنْ تُبيِّن لنا هذه الإشارات ديانة الرَّجل، فهناك إشارات إلى الأصْنام، وأخرى إلى اليهوديَّة، وثالثة إلى النصرانيَّة، ورابعة إلى الحنيفيَّة السَّمْحة، كما كثُر بالدِّيوان بعض المعاني والأساليب والألفاظ الإسلاميَّة، وسيُحاول الباحث في الصفحات التالية استعراض هذه الإشارات، واسْتقراء دلالاتها، ومناقشة ما يرتبط بها من قضايا لاسيَّما قضيَّة الأصيل والمَنْحُول.

١- **الوثنيَّة**: ونقْصد بها الصَّنميَّة، وقد جاءتْ الإشارةُ إليها في ثلاثة مواضع كما يلي:

أ- قول الشاعر:

فعَنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نِعاجَهُ عَذارَى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذيَّلِ

قال الشَّارح:"قوله: "فعنَّ لنا سِربٌ" أي عَرَض لنا قَطيعُ بَقَر، وشبَّه إناثه بجَوَارٍ يَطُفْن بدَوَار، وهو صنمٌ لأهل الجاهليَّة يَدُورون حَوْله..."[١].

ب- قول الشاعر:

ألا عِمْ صباحًا أيها الطَّلَلُ البَالي وهل يَعِمَنْ مَن كان في العُصُر الخَالي
وهل يَعِمَنْ إلا سعيدٌ مُخلَّدٌ قليلُ الهُمومِ ما يَبيتُ بأوْجالِ
وهل يَعِمَنْ مَن كان أحْدَث عهدُه ثلاثينَ شهرًا في ثلاثةِ أحْوالِ[٢]

قال الشَّارح:" دُعاء للطَّلل بالنَّعيم، وأنْ يكون سالمًا من الآفات، وهذا من عاداتهم، وكأنَّهم يَعْنون بذلك أهل الطَّلل"[٣].

وهذا الشاهد أكثرُ دلالةً من سابقه، حيث يتكرَّر لفظُ"يَعِمُّ" بالأمر(عِمْ)، وبالمضارع ثلاث مرات(يَعِمَنْ)، وهذه التحيَّة كانت من سمات الجاهليَّة.

---

(١) ديوان امْرئ القَيْس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤، ص٢٢.
(٢) السابق، ص ٢٧.
(٣) السابق، ص ٢٧.

ت- قول الشاعر:

ألا انعمْ صباحًا أيُّها الرَّبعُ وانطِق وحدِّث حديثَ الرَّكب إنْ شئتَ واصدُق[1]

هذه هي الإشارات القليلة النَّادرة التي وردت في الشعر المحقَّق لامْرِئ القَيْس، وهي إشارات نادرة نزْرةٌ لا تشير إلى حياة الشَّاعر في العصر الجاهليِّ وارتباطه بعلاقة دينيَّة مع الأصنام، والباحث في هذه النقطة يجد بَونًا شاسعًا بين الحياة الجاهليَّة للعرب قبل الإسلام وما ورد في شِعر الشَّاعر، على الرُّغْم من أنَّ الشاعر كان من فُرسان الجاهلية وأعلامِها مُلكًا وجاهًا ومالًا وشعرًا، وقد تعدَّدت رحلات الشاعر في الجزيرة العربية طُولًا وعَرْضًا، بل تعدَّى الجزيرة في رحلته المشْهُورة إلى قيصر الرُّوم فمرَّ ببلاد الشَّام وتُركيا...، لكنَّ هذه الحياة والرحلات - مع الأسْف - لم نجد لها صورة مُناسبة في شِعر الشَّاعر الكبير.

يقول ابن الكَلْبيِّ عن العُزَّى:"وكانت أعظمَ الأصنام عند قُريش، وكانوا يزورونها ويُهْدون لها ويتقرَّبون عندها بالذَّبح" [2]. ويقول عن اللَّات: "وكان سَدنتُها من ثَقيف بنُو عتَّاب بن مالك، وكانوا قد بَنَوا عليها بناءً، وكانت قُريش وجميعُ العرب تُعظِّمُها"[3]، كما يقول عن مَناة:"وكانت لهُذيل وخُزاعة، وكانت قُريش وجميع العرب تعظِّمُه"[4].

ومن العجيب أنَّ امرأ القَيْس لم يذكُر من آلهة القحطانيِّين شيئًا حتَّى أسماءها، مثل:"عِشْتار"،و"أيْل"،و"يَعْل"، ولا من آلهة العدنانيِّين شيئًا حتَّى أسماءها، مثل:"اللَّات"و"العُزَّى"،و"مَناة"،و"هُبَل".

ولم يكن خُفُوت موقف شعر امْرِئ القَيْس نتيجة لانعدام هذه الأصنام، أو لعدم تعرُّضِه لها، أو هامشيتها في التاريخ الجاهليِّ، فالصنميَّة متجذِّرة في التاريخ العربيِّ قبل الإسلام، فهي من عَهد نوح، وكانت على عَهد إبراهيم، وكانت تنتشر من قديم بالشَّام واليمن والعراق، قال تعالى:﴿إذ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ أتَتَّخذُ أصنامًا آلهةً إنِّي أراك وقومَك في ضَلالٍ مُبين﴾ [5]. ومَن يرجع إلى كتاب الأصْنام لابن الكَلْبيِّ يجدْ عددًا هائلًا من الأصنام التي لم يَرِد ذكرُها في شِعر امْرِئ القَيْس، فهناك "الفَلْس" صَنمُطَيء[6]، و"الغَبغَب"[7]، و"إسَاف"[1]،

---

[1] ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٦٨.
[2] كتاب الأصنام، لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق:أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م، ص ١٨.
[3] السابق، ص ١٦.
[4] السابق، ص ١٥.
[5] الأنعام، ٧٤.
[6] كتاب الأصنام، ص١٥.
[7] السابق، ص٢٠.

و"نائِلة"[٢]، و"مَناف"[٣]، و"ذوالخُلصة"[٤]، و"سَعد"[٥]، و"ذو الكفَّين"[٦]، و"ذو الشَّرَى"[٧]، و"الأقيْصِر"[٨]، و"نَهْم"[٩]، و"عائم"[١٠]، و"سُعير"[١١]، و"عَميانُس"[١٢]، و"كعبة بني الحارث بن كَعْب" بنجران[١٣]، و"اليَعْبوب"[١٤]، و"باجِر"[١٥]...

وقد ذكر الدكتور جَواد عليّ عددًا من أصنام العرب قبل الإسلام - غير ما سبق عند ابن الكلبيِّ - في أماكن متفرِّقة من كتابه "المُفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام"[١٦].

نعم، لم يَرِدْ في شعر امْرِئ القَيْس اسمُ صنم واحدٍ من أصنام العرب، ولم يرد ذكر "ذي الخُلْصَة"[١٧] إلا في أخباره، وإنّ الخبر الذي ورد بهذا الخصوص في كتاب الأصنام ربَّما لم تكن نسبتُه إلى امْرِئ القَيْس صحيحةً على الأرجح، وإنما يخصُّ رجلًا غير معروف من العرب، فقد قال ابن الكلْبِّي عن القصَّة التي ورد فيها الخبر: "ومِن الناس من يَنْحلُها امرأ القَيْس ابن حُجْر الكِنْدي"[١٨].

ولا يقتصر الضَّعف في شعر امْرِئ القَيْس على الأصنام رمز الحياة الدينيَّة الجاهليـة، بل تعدَّى ذلك إلى مظاهر دينيَّة أُخرى مثل الشكِّ في البعث، والاسْتقسام بالأزْلام، والذَّبح على النُّصُب، تلك المظاهر التي أشار إليها القرآن الكريم وفنَّدها في آياتٍ كثيرة[١٩].

١- اليهوديَّة: وجاءت الإشارة إليها في شِعر امْرِئ القَيْس مرَّة واحدة في قوله:

---

(١) السابق، ص٢٩.
(٢) السابق، ص٢٩.
(٣) السابق، ص٣٢.
(٤) السابق، ص٣٤.
(٥) السابق، ص٣٦.
(٦) السابق، ص٣٧.
(٧) السابق، ص٣٧.
(٨) السابق، ص٣٨.
(٩) السابق، ص٣٩.
(١٠) السابق، ص٤٠.
(١١) السابق، ص٤١.
(١٢) السابق، ص٤٣.
(١٣) السابق، ص٤٤.
(١٤) السابق، ص٦٣.
(١٥) السابق، ص٦٣.
(١٦) المُفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.
(١٧) قال ابن الكلبي في "كتاب الأصنام" :"ذو الخُلصة مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بتَبالة بين مكة والمدينة على مسيرة سبع ليالٍ من مكة، و"ذوالخُلصة" اليوم عتبة مسجد تَبالة". ص٣٦.
(١٨) كتاب الأصنام، ص٣٤، ص٣٥.
(١٩) على سبيل المثال ، انظر: المائدة، الآية: ٣، المائدة، الآية: ٩٠، الأنعام، الآية: ٢٩، الأنعام، الآية: ١١٢.

فعزَّيتُ نَفسِي حِين بانُوا بِجَسْرةٍ أمُونٍ كبُنيانِ اليَهوديِّ خَيْفَقِ

قال الأعْلم:" ...شبَّه ناقتَه في طُولها وشِدَّة خَلْقها ببُنْيان اليهوديِّ، وكأنه أراد قَصْرًا من قُصُور تيْماء، فلِذلك ذكر اليهودَ لأنَّ تَيْماء مدينة لهم..."[١].

هذه هي الإشارة الوحيدة التي ورد ذكرها في شِعر امْرئ القَيْس، وهي تشير إلى خُلو ذِهن الشَّاعر من أثر هذه الدِّيانة، على الرُّغم من انتشار اليهوديَّة في بقاع كثيرة في الجزيرة العربيَّة، فقد كانت منتشرةً بِتيْماءَ التي حلَّ بها الشاعر ضيفًا على السَّمَوْأل بن عادِياء، وكانت بيثرب عند بني قُريظة وبني النَّضير وبني قَيْنُقَاع، وكانت ببلاد اليَمن عند الحِمْيريِّينوالتَّبابِعة.

٢- النَّصرانيَّة : وقد أشار إليها الشاعر في ستَّة مواضع هي:

قولُه:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبيبٍ وعِرفانِ ورَسمٍ عَفَتْ آياتُهُ مُنذُ أزْمانِ

أتتْ حِجَجٌ بعْدي عَلَيْها فأصبحَتْ كخَطِّ زَبُورٍ في مَصاحِفِ رُهْبان[٢]

وقولُه:

فإمَّا تَرِيني في رِحالَةِ جَابرٍ على حَرَجٍ كالقَرِّ تخفُقُ أكْفاني[٣]

وقولُه:

لها مُقلَةٌ لو أنَّها نَظَرتْ بِها إلى راهبٍ قد صامَ لله وابْتهلْ

لأصبح مَفْتُونًا مُعنًّى بحبِّها كأنْ لم يصُمْ للهِ يومًا ولم يُصَلْ[٤]

---

[١] شرح ديوان امْرئ القَيْس بن حجر الكندي لأبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيس المعروف بالأعلم الشنتمري، اعتنى
بتصحيحه الشيخ بن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة عام ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م، ص٣٢٢.

[٢] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٨٩.

[٣] السابق، ص ٩٠، والحَرَج: نعشُ النصارى.

[٤] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٨٩.

و قولُه:

تُضـيء الظَّـلامَ بالعِشـاءِ كأنَّهـا مَنَـارةُ مُمسَـى راهـبٍ مُتبتِّـلِ[1]

وقولُه:

أصـاحِ تَـرَى برْقًا كـأنَّ وميضَـه كَلَمْـعِ اليـدَينِ فـي حَبـيٍّ مُكلَّـلِ

يُضِـيء سَناه أوْ مصابيحَ راهبٍ أهـانَ السَّليطَ فـي الـذُّبال المُفتَّلِ[2]

وقولُه:

نَظَـرْتُ إليهـا والنُّجـومُ كأنَّهـا مصـابيحُ رُهبـان تُشَـبُّ لقُفَّـالِ[3]

وهذه الإشارات إلى النصرانيَّة كما نَرَى أكثرُ من غيرها، وهي تُعْري بإعلان دِيانة النَّصْرانيَّة على الشَّاعر، وهذا ما حَدَث مع لُويس شِيخُو الذي قال بنصرانيَّة امْرِئ القَيْس، ويستشهدُ على ما ذهب إليه بذكر بعض الألفاظ الدينيَّة في شِعر الشاعر، مثل: الله، وقدرته، وحسابه، وغير ذلك.

وقد وضع لُويس شِيخُو امْرأ القَيْس ضِمن شُعراء النَّصرانيَّة قبل الإسلام[4]، وتابعه جُرْجي زيدان في القول بنصرانيَّة الشاعر، مؤكِّدًا أنَّ النصرانيَّة كانت دينَ بعض أفراد أسرة مملكة "كِنْدة"، ومن ثَمَّ كان الشاعر مثلُهم،"واخْتلفوا في ديانة مُلوك الحِيرة، فمن قائل إنهم تنصَّروا على عهد امْرِئ القَيْس الأوَّل بن عمرو في أوائل القرن الرابع، وقائل إنَّ أوَّل من تنصَّر النُّعمان بن المُنذر في آخر القَرْن السَّادس"[5]، و"إنَّ المُنْذر بن امْرِئ القَيْس بن مَاء السَّماء كان يُقدِّم ذبائحَ إلى العُزَّى، وكان مِن بين نِسائه امرأةٌ من غَسَّان اسمُها هِند الكُبرى أم عمرو بن هِند مُضْرط الحجارة كانت مَسيحيَّة، فبثَّت مبادئ النَّصرانيَّة في ابْنها فَنَشأ نَصرانيًّا، ويُؤيِّد ذلك ما نقَشَتْه على دَيْرِها..." [6].

يقول سميح دِغيم:"وفي الشِّعر الجاهليِّ لا نكاد نعثرُ على مفاهيمَ واضحةً ولا على تَعابيرَ تُحدِّد اتجاهًا اعتقاديًّا مميَّزًا. لقد اختلطت الأمور وتمازَجتْ،

---

[1] السابق، ص١٧.
[2] السابق، ص٢٤.
[3] السابق ، ص٣١.
[4] شعراء النصرانية قبل الإسلام، القسم الأول"شعراء اليمن من كندة ومذحج وطيء"، دار المشرق، بيروت، ط٤، ص٦.
[5] العرب قبل الإسلام، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت، ص٢٨٤.
[6] السابق، ص٢٨٥.

وغَدَت الصَّنميَّة والوثنيَّة متواجدة في البيت الواحد إلى جانب التَّوحيد، فمع ذكر الأصْنام ورجاء الأوثان يُذكر اسمُ الله ..." [١].

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا آياتٍ عديدة تتحدَّث عن النَّصارى واليهود ومعتقداتهم وعباداتهم، وفي عِدَّة سُور تحدَّث القرآن عن نبي الله عيسى وأُمِّه مَريم عليهما السلام، وكان موسى - عليه السلام - من أكثر الأنبياء الذين ذُكرتْ قصتُه في القرآن الكريم: مولده، وبعثته، وموقفه من فِرعون، وقصَّته مع لُوط، وقصَّته مع الخَضِر عليه السَّلام[٢]، وكانت آيات القُرآن سِجلًّا حافلًا لتاريخ اليهود والنَّصارى مع أنبيائهم ومن بعد أنبيائهم، ومع رسول الإسلام محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فالقُرآن قد أعْطانا صورةً كاملة عن تاريخ اليهود والنَّصارى، ومُعتقداتهم، وتصورهم للإله والأنبياء، وكُتُبهم، ومعاملاتهم، وإيمانهم، وكُفْرهم[٣].

٣- الحنيفيَّة: وقد وردتْ بشأنها إشارة واحدة هي قوله:

فلّلـه عَينَـا مَـنْ رَأى مِـن تفـرُّقٍ أشَتَّ وأنْـأى مِن فِراق الـمُحَصَّبِ[٤]

قال الشارح:"وقوله: أشتَّ وأنْأى، أي أشدَّ بُعدًا وفُرْقة مِن فِراق الـمُحَصَّب، وهو موضع رَمْي الحجارة بمِنَى، وإنَّما سُمِّي الـمُحصَّب لأنَّه يُرْمَى فيه الحَصْباء، وهي الحِجارة الصِّغار..." [٥].

إنَّ شِبه الجزيرة العربيَّة لم تخلُص لعبادة الأوثان، وإنما كان يملؤُها خليطٌ من الأديان، وكانت كلُّ منطقة يَشِيعُ فيها ديانة ما، ولم تكُن مكَّة معلمًا للصنميَّة وحدَها، وإنَّما كانت منزلَ إبراهيم في جزيرة العرب، وكذا ابنه إسماعيل، ومن ثَمَّ انتشرتْ تعاليمُ دين إبراهيم في مكَّة وما حولها، وكان في أهلها "بقايا مِن عَهدِ إبراهيم يتمسَّكون بها من تعظيم البيت والطَّواف به، والحجِّ والعُمْرة، والوقوف على عَرَفة، والمُزدلِفة، وهَدْي البُدْن،..."[٦].

إن الدكتور طه حُسين لم يقف موقفَ عدْلٍ من ورُود إشارات عن "الحنيفيَّة" في الشِّعر الجاهليِّ بعامَّة، بل صرَّح في أكثر مِن مَوضع بكتابه "في الأدب

---

[١] أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص ٨٩..

[٢] على سبيل المثال ننظر: سورة الكهف الآيات من ٦٦إلى ٨٢، سورة طه الآيات من ٩ إلى ٩٨، وسورة النساء الآيات من ١٥١ إلى ١٦١، و١٧١ ، وسورة مريم الآيات من ١٦ إلى٣٤ .

[٣] على سبيل المثال ننظر: المائدة، بعض آية ١٨، المائدة، الآية: ١٧، والآية ٧٢، المائدة، بعض آية ١٢، المائدة، الآية: ٦٩، والآية: ٨٢.

[٤] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٤٣.

[٥] السابق، ص ٤٣.

[٦] الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ص ٤٠٤..

الجاهلي" أنَّ هذه المظاهر الدينيَّة كانت من وضع المسلمين؛ وذلك – في رأيه- لأغراض دينيَّة وسياسيَّة متنوعة أهمها إثبات أنَّ الإسلام دين حقٍّ، وأنه سُبق بمُبشِّرات كثيرة في العصر الجاهليِّ، فما يُروى عن العناصر الحنيفيَّة من أحاديث "قد وُضِعت لهم، وحُمِلت عليهم بعد الإسلام، لا لشيءٍ إلا ليُثبتَ أنَّ للإسلام في بلاد العرب قُدْمةً وسابقة"[١].

ولا أدري! أيستبعد طه حسين وجود هذه المبشِّرات، أم يعدُّها عَيبًا في الإسلام نفسه، فأمَّا استبعاده فإنما يحتاج إلى دليل ينفي هذه الإشارات المتعدِّدة واحدة واحدة، وخاصَّة أحاديث ورَقة بن نَوفل، وأخبار أكْثم بن صَيفي، وما رُويَ عن قُسٍّ بن ساعدة الإيادي، وغيرهم. ومن ينفي تبشير المسيح عَيسى بن مريم بنبوَّة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم في قوله تعالى: ﴿وإذ قال عِيسَى ابنُ مَريم يا بني إسْرائيلَ إنِّي رَسولُ اللهإليكم مُصدقًا لما بَين يديَّ من التَّوراةِ ومُبشرًا برسولٍ من بَعْدي اسمُه أحمَد فلمَّا جاءهم بالبيِّنات قالُوا هَذا سِحرٌ مُبين﴾[٢]؟ومن ينفي أنَّ سيِّدنا مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم دعوةُ سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام في قول تعالى: ﴿ربَّنا وابْعثْ فيهم رَسولًا مِنْهم يتلُو عليهم آياتِك ويُعلِّمُهم الكِتاب والحكْمة ويزُكِّيهم إنَّك أنتَ العزيزُ الحكيم﴾[٣]؟ فالتبشير ثابتٌ بنصِّ القُرآن الكريم، فأمَّا الأخبار الأُخرى فإنَّ بقايا دين إبراهيمَ تجعلها مُمكنة الحدوث إلا أنْ ينفيها دليلٌ واضح.

٤- الأديان الأخرى:

لم يرد عند امْرئ القَيْس إشاراتٌ إلى "الصَّابئة "، وهم عَبَدَة النجوم، وكانت حَرَّان في شمالي غرب العِراق مركزًا مُهمًّا لهم..." [٤]، وقد كانت الزُّهَرة[٥] والشَّمس[٦] معبودين في بعض مناطق العَرَب، لكنْ يبدُو أنَّ هذه العبادة لم تكُن في انتشار الدِّيانات الأُخرى بِشِبْهِ الجزيرة[٧].

هذا، ولم يرد ذكرٌ لمجموعة من الممارسات الدِّينيَّة عند العرب قبل الإسلام ممَّا أكَّدته المصادر التي تحدَّثتْ عن هذه الفترة، فلم يردْ ذكرٌ لتعظيم الأشْهُرِ الحُرُم،

---

[١] في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ص ١٥٧.
[٢] الصف، الآية: ٦.
[٣] البقرة، الآية: ١٢٩.
[٤] أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص١٣٧.
[٥] أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص ١٤٢.قال في لسان العرب مادة "شمس":" وشمس صنم قديم ، وعبد شمس بطن من قريش، قيل: سموا بذلك لصنم...".
[٦] السابق، ص ١٤٤.
[٧] تحدَّث القرآن الكريم عن الصابئة في أكثر من آية، قال تعالى:(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين...). البقرة، الآية:٦٢. وقال تعالى:(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى والمجوس...). المائدة: الآية٦٢.

ولا للطواف بالبَيت، ولا لشعائر الحجِّ، ولا للذَّبْح على الأنْصاب، ولا النَّذْر، ولاالقرابين!

هذه هي صورة الأديان **قبل الإسلام** في شِعر امْرئ القَيْس.

ويجدُرُ بنا - قبل الحديث عن علاقة هذه الصورة بقضية الشِّعر المنحول في شِعر امرئ القيس - أنْ نُنبِّه إلى أمرٍ خَطير في هذه القضيَّة ونُبدي تعجُّبنا منه، ذلك الأمر هو خَفاء ديانة امْرئ القَيْس. فكيف يكونُ رجل في حَجْم امْرئ القَيْس شعرًا وملكًا وجاهًا ومالًا ولا يُعرف دينُه؟ وإن كانت ديانة امْرئ القَيْس الفرديَّة غامضة فأين ديانةُ مملكة "كِنْدة" التي ينتمي إليها امْرُؤ القَيْس؟ وأعجب من ذلك أنَّ النقاد القُدماء سكتُوا عن هذا الأمر!

إنَّ اختلاف الباحثين حول ديانة امْرئ القَيْس يفسّره أنَّ جزيرة العرب كانت تموج فعلًا بتيارات من الجاهلية الدينية، سواءٌ أكانت عبادة الأصنام، أم اليهوديّة، أم النصرانيّة. فعبادة الأصنام كانت منتشرة خاصَّة عند عرب الشَّمال بما في ذلك كِنْدة وربيعة وبني سَعد وغَطفان، وكانت اليهوديّة منتشرة قبل الإسلام في يثْرب بين بني قينُقاع وبني النّضير وبني قُريظة، كما كانت منتشرة في تَيماء، كما كانت النصرانيّة في نجران والحِيرة بالشَّمال، وكان هناك بعض النّصارى في مكّة لكنهم كانوا من غير أهلها، كالأحباش.

وعلى العموم فإنَّ الباحث يرى أنَّ خفاء ديانة الشاعر – فضلًا عن خفاء ديانة المملكة – ربَّما يعود إلى تسليم النقاد القدماء بوثنيَّة امْرئ القَيْس، تلك الوثنيَّة التي لم يشذ عنها إلا نفر قليل من شعراء العرب ممن اعتنقوا النصرانيّة أو اليهوديّة.

هكذا – من خلال هذا العرض السابق- تبدو الحياة الدينيَّة في شعر امْرئ القَيْس ضعيفة خافتة، لا تشير إلى حياة زاخرة بالعواطف والمشاعر والأحاسيس التي تُوجد بين العابد والمعبود. وبدا صوت امْرئ القَيْس – من خلال شعره المحقَّق – خافتًا ضعيفًا، والسّبب في ذلك – كما يرى الباحث - يرجع إلى ضياع أكثر الشِّعر الجاهلي بخاصَّة شعر امْرئ القَيْس بن حُجْر؛ فضاعت معاني الجاهليَّة مع ما ضاع من شِعرٍ وإبداع، ولو وصل إلينا شعرُ الجاهليَّة كاملًا لرأينا صوتًا مُختلفًا لامْرئ القَيْس عن حياته الدينيَّة الخاصَّة، وحياة مملكته "كِنْدة".

لقد كان للعصور الإسلامية أثر مغاير للذي ذكره طه حسين، فإن كان يتَّهم العصور الإسلامية الأولى بوضْع الشِّعر ونحلِه الشعراء الجاهليين فإنَّ هذه العصور متَّهمة بتُهمتين مُعاكستين هما"الحذْف" و" والانتقاء"، فالعصور الإسلاميّة قامت في بعض أطوارها بحذْف الشِّعر الجاهليّ، ونقصدُ بالحذف هنا

إعراض المسلمين عن رواية الشِّعر الجاهليِّ حتّى تناساه النّاس ونَسوه؛ لأنَّه كان يُمثِّل عقيدةً تُخالف العقيدة الإسلاميّة، وعباداتٍ تُخالف عبادات الإسلام، وأفكارًا مغايرة للفكر الإسلاميّ المرتبط بالوحي، وطرائقَ حياة أبْدَلهم الله خيرًا منها، فضاع لهذا أكثرُ الشِّعر الجاهليِّ.

وممَّا يُبيِّن منهج"الحذف" هذا أنَّ الرسول صلّى الله عليه وسلَّم نهى عن إنشاد قصيدة الأعْشى في هجاء علْقمة بن عُلاثة، وحال دون سماع قصيدة أُميَّة بن أبي الصَّلت التي يحرِّض فيها قريشًا بعد بدْر[١].

كذلك إعراضُ كثيرٍ من المؤرِّخين عن تسجيل شِعر الهجاء القُرشيّ لشخص النبيّ صلّى الله عليه وسلَّم؛ لوجود النبيِّ في السُّلطة، أو تقديرًا لمكانته بعد مماته، أو خوفًا من سلطان المسلمين من بعده.

قال ابن هشام - بعد أن ذكر ثلاثة أبيات للحارث بن هشام هجا فيهم الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم ونال منه - : " أبدلْنا من هذهِ القصيدة كلمتين ممَّا روى ابنُ إسحاق، وهما: " الفخْر " في آخر البيت، و" فما لحَليم " في أوَّل البيت؛ لأنه نال فيهما من النبي صلَّى الله عليه و سلَّم"[٢].

ولقد كان هذا المنهج من أسباب جمود أنفاس الشِّعر في مكَّة والمدينة، حيث تحرَّج مؤرخو الأدب من رواية الأشعار التي هجا فيها شعراء قريش المصطفى صلّى الله عليه وسلَّم. يقول محمد عبد العزيز الكفراوي:"و مع أنَّ مؤرخي الأدب ورواته قد تحرَّجوا من تدوين تلك الهجمات الشعريَّة التي شنَّها القرشيُّون على الرسول و صحبه، فإنَّنا لا نشكُّ في أنها كانت لاذعة ومُقذعة، و إلا ما استحلَّ الرسول - وهو الرءوف الرحيم - دماءهم، وأعلنها حربًا عليهم لا هوادة فيها ولا مهادنة، ...." [٣].

ولابد أنَّ العرب نظموا حياتهم الدينيّة في شعرهم، وخاطبوا آلهتهم، وبينوا علاقتهم بها، لكن العصر الإسلامي بما حمل من رسالة جديدة بدأ يطبع المجتمع العربي بطابع مغاير في كثير من الوجوه لما ألفه من قبل، وبدأت ثقافة جديدة تتثبت شيئًا فشيئًا، وكان معالم هذه الثقافة الجديدة هدمُ معالم الحياة الجاهلية إلا ما وافق منها تعاليم الإسلام.

---

[١] انظر : الأغاني، طبعة دار الثقافة، ٤ /١٢٦.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، حققها وضبطها ووضع فهارسها: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة الرياض الحديثة، المملكة العربية السعودية، د.ت، ج٣ ، ص ٢٧٩.

[٣] الشعر العربي بين الجمود و التطور ، محمد عبد العزيز الكفراوي ، دار نهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة ، طبعة سنة ١٩٧٣ م ، ص ٤٨ .

يقول أحمد الحوفي: " فلمَّا أنعم الله عليهم بالإسلام وشرح له صدورهم تناسوا كثيرًا ممَّا كان لهم من شِعرٍ وثنيٍّ، ثم نَسوه، فلم يجد الرواة إلا أثَارَةً قليلة منه، أو أغضَوا عن كثير ممَّا وجدوا أنَفة من دينهم الوثنيِّ، واعتزازًا بالإسلام، وتعفيَةً على العقائد التي قُوِّضتْ تَقويضًا " [١].

هذا، وقد نبَّه الدكتور طه حسين إلى ضعف صورة الحياة الدينيَّة في الشِّعر الجاهلي بعامَّة وشعر امْرئ القَيْس وعنترة وطرفة بخاصَّة، ورأى أنَّ هذا الشِّعر لا نلمس فيه قوة العاطفة الدينيَّة لدى الشاعر الجاهليِّ. يقول طه حسين:"هذا الشِّعر الذي يُضاف إلى الجاهليِّين يُظهر لنا حياة غامضة جافَّة بريئة أو كالبريئة من الشُّعور الدينيِّ القويِّ والعاطفة الدينيَّة المتسلِّطة على النفس والمسيطرة على الحياة العمليَّة، وإلا فأين تجد شيئًا من هذا في شعر امْرئ القَيْس أو طرفة أو عنترة؟" [٢].

وإنْ كان الدكتور طه حسين يرى ضعف الحياة الدينيَّة في الشِّعر الجاهلي بخاصَّة عند امْرئ القَيْس، فإنَّ الدكتور أحمد الحوفي يرى عكس ذلك، وأنه"بقي لنا من الشِّعر الجاهليِّ كثير يصور حياتهم الدينيَّة، وثنيَّة وغير وثنيَّة، تصويرًا واضح المعالم في شعر أميَّة بن أبي الصَّلْت ..." [٣].ثم يضرب الحوفي أمثلة تدلّل على كلامه، فيذكر بعض الأبيات التي ورد فيها القسم ببعض الأصنام[٤]، أو ذِكْرُها[٥] أو الاستقسامُ عندها[٦]، أو الدورانُ حولها[٧]، أو تقديمُ القرابين لها[٨].

إلا أن ما ذكره الحوفي من أبيات لا يُعبِّر أبدًا عن الحياة الدينيَّة الجاهليَّة، ولا يبيِّن منزلة الأصنام عند العرب، وارتباط حياتهم بها كآلهة، كما لا تُفسِّرُ أبياتُه القليلة العلاقة التي تربط العرب بمعبوداتهم...

إنَّ رؤية طه حسين السابقة تحمل في طيَّاتها جانبًا إيجابيًّا وجانبًا سلبيًّا، فأمَّا الأوّل فهو ضعف صورة الحياة الدينيَّة في الشعر الجاهليِّ بخاصَّة في شِعر امْرئ القَيْس الذي يدور حوله هذا البحث، وأمَّا الجانب السلبيّفهو الخروج بتفسير هذه الظاهرة إلى سبب غير مباشر، فبدلًا من أن يردَّ هذه الظاهرة إلى أسباب علميَّة منطقيَّة ردَّها إلى وضع الشِّعر ونحلِه في العصور الإسلامية!

---

[١] الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٣٧٤.
[٢] في الأدب الجاهلي، ص ٨٠.
[٣] الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٣٧٧.
[٤] السابق، ص ٣٩٣.
[٥] السابق، ص ٣٩٥.
[٦] السابق، ٣٩٧.
[٧] السابق، ٣٩٨.
[٨] السابق، ٣٩٩.

إنَّ أمورًا عدَّة لم يلتفت إليها طه حسين بخصوص قضية الشِّعر المنحول للشاعر امْرِئ القَيْس، بل رمى القول على عُمُومه، ولم ينظر إلى كُلِّ شاعر على حِدة فيرى موقفَ النَّحل من شعره، فالظواهر العلميَّة ليستْ كلامًا مرسلًا، والعصر الجاهلي - قرونًا وعقودًا - لا يمكن أن يخضع لمقياس واحد، وإنما تُنظر حالاتُه الشعريَّة واحدة واحدة، ولكلِّ حالة شعريَّة ظروفها الخاصة(التاريخيَّة والثقافيَّة ...)، والأصالة في الشعر الجاهليِّ عند امْرِئ القَيْس ليست كما عند طرَفة، وليست عندهما كما عند عنترة...، فقد يَسْلَم شاعر – حسب ظروفه التاريخيَّة والثقافيَّة ...- من الشِّعر المنحول، وقد يخضع شعر شاعر آخر كُلُّه إلى النَّحل.

وبالنظرة العامَّة نفسها قال الدكتور طه حسين بأنَّ شِعر امْرِئ القَيْس موضوع منحول، معتمدًا على اختلاف لُغة الشَّمال عن لغة الجنوب. ولو طبَّقنا هذا الوضع – انتفاء اللغة الشماليَّة عن الشاعر - على قصيدة واحدة فإنَّنا لا يمكن أن نؤكِّد صِحَّة قصيدة واحدة له، والعكس إذا أثبتنا قصيدةً واحدة للشاعر فلا يمكن أن ننفي عنه شعره الذي قيل بلُغة الشَّمال إلا ما ثَبت بالدليل أنَّه موضوع.

ولم ينظر طه حسين – مع الأسف الشديد – في دراسة القضيَّة إلى العوامل التاريخيَّة والثقافيَّة المصاحبة لظاهرة امْرِئ القَيْس فيما نبَّه عليه النقاد بعد صدور كتابه "في الأدب الجاهلي". وسوف نناقش ذلك خلال الإشارات الإسلاميَّة في شعر امْرِئ القَيْس؛ لأنَّ طه حسين صال وجال فيها، وكانت ميدانًا واسعًا ألقى فيه كل ما أملاه فكره متأثرًا في ذلك بالمستشرقين الذي سبقوه في هذا الميدان، فاتَّهم العصور الإسلاميَّة بوضع الشِّعر عل لسان امْرِئ القَيْس.

٥- الإشارات الإسلاميَّة في شعر امْرِئ القَيْس

كان الطابع الإسلاميُّ في دواوين الشِّعر الجاهليِّ هو المنفذ الأساس للشكِّ في شعر ذلك العصر، بخاصَّة شعر امْرِئ القَيْس بن حُجْر الذي مات في حدود سنة ٥٦٠ م. هذا إلى جانب عوامل أخرى كعامل اللغة المختلفة بين الشَّمال والجنوب، وغياب الجانب الاقتصاديِّ والجانب الاجتماعيِّ في دواوين كثير من الشُّعراء. وسيكون العامل الديني- الآثار الإسلامية - هو محور الصفحات الآتية.

يقول طه حسين: "إنَّ هذا الشِّعر الجاهليَّ لا يصوِّر الحياة الدينيَّة عند العرب، وذلك على الرُّغم من أنَّ المشركين كانوا أشدَّ حرصًا على معبوداتهم وديانـاتهم، فلماذا صمتَ الشِّعرُ عن كُلِّ ذلك؟"[١].

كما يقول في موضع آخر:"والشِّعر الجاهليُّ يشتمل على معانٍ إسلاميَّة وإشارات قرآنيَّة مثل قِصَّة نوح وسُليمان عليهما السلام، وهذا يدلُّ على أنَّ المسلمين هم الذي وضعوا ذلك بتأثير القرآن الكريم والدِّين الإسلامي" [٢].

نعم، إن بعض الجمل الإسلاميَّة الصِّرفة تكسو كثيرًا من شعر امْرئ القَيْس، وهذه الجمل تنصرف بلا شك إلى العصر الإسلاميِّ، فرائحة الإسلام تتجلَّى في الألفاظ والأسلوب، وهذا ما دعا طه حسين إلى القول ببعد هذا الشعر عن حياة العرب في الجاهليَّة،"فهذا الأدب الذي رأينا أنه لا يُمثِّل الحياة الدينيَّة والعقليَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة للعرب الجاهليّين بعيدٌ كُلَّ البُعد عن أن يُمثِّل اللغة العربيّة في العقد الذي يزعُم الرُّواة أنه قيل فيه "[٣].

وقد تابع طه حسين"مرجليوث" فيما ذهب إليه. فهل نحكم على كل شعر فيه رائحة الإسلام بأنَّه موضوع؟ أو منحول؟

إنَّ الإجابة على هذا السؤال تجعلُنا نُصنِّف هذه الإشارات إلى لونين كما يلي:

اللون الأول: الألفاظ

ونعني به الألفاظ التي كانت حقلًا مشتركًا بين القرآن وشعر امْرئ القَيْس، وفي هذا اللون نستبعد النَّحل؛ ذلك لأنَّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، أي بلُغة العرب، فلمّا كان بلسانهم فإنّنا لا يمكن أن ننفي عن امْرئ القَيْس شعرًا لورود بعض ألفاظ القرآن فيه، إلّا في حالة الألفاظ التي ألح القرآن على تثبيتها في وجدان المؤمنين، أو كانت معلمًا من معالمه وهي كثيرة بلا شك، مثل "لفظ"الرحمن في هذا الشاهد:

لقي عبيد بن الأبرص الأسديُّ امرأ القَيْس، فقال له عبيد: كيف معرفتك بالأوابد، فقال: ألق ما أحببت، فقال عبيد:

ما السودُ والبيضُ والأسماءُ واحدةٌ لا يستطيعُ لهنَّ الناسُ تَمْساسَا؟

---

[١] في الأدب الجاهلي، ص ٧٣، ٧٤.
[٢] السابق، ص ١٤٥، ٣٠٤.
[٣] السابق، ص٨٠.

فقال امْرُؤ القَيْس:

تلْكَ السحابُ إذا **الرحمنُ** أرسَلَها رَوَّى بها من مُحُولِ الأرضِ أيْباسَا

فقال عبيد:

ما القاطعاتُ لأرضٍ لا أنيسَ بها تأتي سِراعًا وما يَرْجِعْن أنْكاسَا؟

فقال امْرُؤ القَيْس:

تلك الرياحُ إذا هبَّت عواصِفُها كَفَى بأذْيالها للتُّرْبِ كَنَّاسا

فقال عبيد:

ما الفاجعاتُ جِهارًا في عَلانيةٍ أشدُّ مِن فيْلقٍ مملُوءَة باسَا؟

فقال امْرُؤ القَيْس:

تِلك المَنايا فما يُبْقِين مِن أحَدٍ يَكفِثن حَمْقَى وما يُبْقِين أكْياسَا

وقال عبيد:

ما الحاكمون بلا سَمعٍ ولا بصرٍ ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجبُ النَّاسَا؟

فقال امْرُؤ القَيْس:

تلك الموازين **والرحمنُ** أنْزَلها رَبُّ البريَّة بين النَّاسِ مِقياسَا[1]

فنرى تكرار لفظ "الرحمن" في هذه الأبيات على لسان امْرئ القَيْس" إذا الرحمنُ أنْشأها "، و" والرحمنُ أرْسَلها "، وكلمات مثل: "الموازين"،و"رب البرية"، كما يقترن لفظ الرحمن في البيتين اللذين ورد فيهما بلفظين يُسندان إلى الله تعالى في القرآن الكريم هما: "السحاب"، و"الموازين".

قال تعالى:﴿ هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا ويُنْشِئ السحاب الثقال﴾ ، وقال تعالى:﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾[1].

---

[1] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٤٦١، ص٤٦٢، وقد اكتفينا ببعض الأبيات من الخبر المذكور. المذكور.

يقول علي أبو زيد مُعلِّقًا على الأبيات السابقة:"فأيَّة موازين يعنيها امْرُؤ القَيْس؟ وما عَلِمَ بربِّ البريَّة الرحمن الذي يضع الموازين والقسطاس بين الناس؟ وما عَلِم بالرحمن الذي يُرسل السَّحابَ لتجريَ لتسقي البلدة الميتة؟ إن هذه الأبيات منحولة على امْرئ القَيْس لما تحمل من إشارات إسلاميّة لم يكن للشّاعر علم بها، كما أنَّ اتجاه الشّاعر في حياته وسلوكه الخاص يتنافى مع ذِهابه إلى مِثْل هذه المعاني" [٢].

وكلمة "الرحمن" التي وردت كثيرًا في شعر امْرئ القَيْس فإنَّ أغلب الظنِّ أنهم لم يكونوا يعرفونها، ولم تكن منتشرة انتشار بعض أسماء الله تعالى في شبه جزيرة العرب؛ لأن الله تعالى يقول:﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا﴾ [٣].

قال ابن كثير في تفسيره:"وكانوا ينكرون أن يُسمَّى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبيَّة حين قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم للكاتب:اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقالوا: لا نعرفُ الرحمن ولا الرحيم"[٤].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال:"كاتبت أُميَّة بن خَلف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي بمكَّة فأحفظه في صاغته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن قال: لا أعرفُ الرحمن ، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهليَّة"[٥].

اللون الثاني: الأسلوب أو النظم

ونعني به النظم الذي كان حقلا مشتركًا بين القرآن وشعر امْرئ القَيْس؛ وفي هذا اللون نقر بالنَّحل؛ لأنَّ ثَمَّة فرقٌ بين نَظْمِ الشعراء العرب في الجاهلية ونَظْمِ القرآن الكريم، ومِن هُنا فإنَّ النَّظْم نفسه يصبح معيارًا حقيقيًّا للتفريق بين الأصيل من شِعر امْرئ القَيْس والموضوع عليه، ويدخل في النظم كل المعاني الإسلاميَّة الواردة في شعره؛ فالمعاني محكٌّ أساسٌ في المعيار الديني، وإعجاز القرآن إنما كان بتأليف الجملة وصياغة المعاني.

قال عبد القاهر الجرجاني: "فقد اتضح اتضاحًا لا يدعُ للشك مجالًا أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنَّ الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها..." [١].

---

[١] الأنبياء، الآية: ٤٧.

[٢] امْرُؤ القَيْس أمير الشعر العربي في الجاهلية، دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه، لعلي إبراهيم أبو زيد، دار الكتاب الجامعي، العين أ.ع.م، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م، ص٣٦.

[٣] الفرقان، الآية: ٦٠.

[٤] تفسير ابن كثير،٣ /٣٢٤.

[٥] رواه البخاري، ٨٠٧/٢، برقم ٢١٧٩..

وسنعرض بعض الشواهد لهذا اللون كما يلي:

١- يقول امْرُؤ القَيْس:

حلَّت لي الخمرُ وكنتُ امرأً عن شُربها في شُغُلٍ شاغلِ

فاليوم فاشربْ غير مُسْتَحْقِبٍ إثمًا من اللهِ ولا واغِلِ[٢]

فقوله"حلَّت"، و"إثما من الله" أثر إسلامي واضح؛ لأن الخمر إنما وقع لها التحريم بعد مجيء الإسلام، خاصة لاقتران "إثما" بقوله "من الله".

٢- يقول:

اللهُ أنجحُ ما طلبتُ به والبرُ خيرُ حَقيبة الرَّحْل

ومِن الطَّريقةِ جائرٌ وهُدًى قصدُ السبيلِ ومِنه ذو دَخَل[٣]

يتَّضح في البيتين كذلك الأثر الإسلامي، لقوله: "الله"، و"البر "، "ومن الطريقة جائر وهدى" و" قصد السبيل"، فهناك قول الله تعالى في سورة النحل:﴿وعلى الله قصدُ السبيلِ ومنها جائرٌ ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ [٤].

٣- يقول:

فأبيتُ أنعمَ ناعمٍ مُطِر الصَّبا لو نالَ حيًّا نالني الخُلْدُ[٥]

لا شك أنَّه متأثر بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ ([٦])، وقد ورد البيت في رواية الطوسي من القديم المنحول.

٤- يقول:

وأعرفُ غِشَّ المرءِ في لحنِ قَولِه لِذي الحِلمِ قبلَ اليومِ ما تقرع العصا

---

[١] دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني(القاهرة) ودار المدني(جدة)، ط٣، ١٤١٣هـ =١٩٩٢م، ص ٤٦

[٢] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص١٢٢، وص ٢٥٨.

[٣] السابق، ص١٢٢، وص ٢٥٨.

[٤] النحل، الآية: ٩.

[٥] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص٢٣١.

[٦] الأنبياء، الآية: ٣٤.

خُذْ العفوَ واصفحْ عن أُمورٍ كثيرةٍ ودَعْ كدرَ الأخلاق واعمَدْ لما صَفا

ولا تَزهدَنَّ الدهرَ في نُصح مُقْترٍ مُقِلٍّ ولا يُعجبْك مَن كان ذا غِنَى

وإنْ كنتَ يومًا بينَ خَصمين شاهدًا فَقُلْ لهما وجهًا مِن الحقِّ والتُّقَى

وقُل ما رأتْ عيناكَ أو ما أحْطتَه بعلمٍ ولا تشهدْ بشيءٍ على عَمَى

ولا تكُ مختالًا بمَشْيك واقتصدْ فإنَّ الذي يختالُ يَمْشي على قِلَى

إذا ما اتَّقَى اللهَ الفَتَى ثُمَّ لم يكُن على أهلِهِ كلًّا فقد كَمُل الفَتى[1]

والأبيات إسلامية المعاني والألفاظ بلا شك، بل إن بعض جملها مأخوذة من القرآن نصًّا كما يلي:

- قوله: "في لحن القول"يقابله قول الله تعالى:﴿ فلتعرفنَّهم بسيماهم ولتعرفنَّهم في لحْن القول﴾ [2].
- قوله: "خُذ العفو" يقابله قول الله تعالى:﴿خُذ العفو وأمُر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [3].
- قوله: "أو ما أحطته بعلم" يقابله قول الله تعالى:﴿ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ [4].
- قوله:" ولا تك مُختالا بمَشيك واقتصد فإنَّ الذي يختال... "يُقابله قوله تعالى على لسان لقمان وهو ينصح ابنه: ﴿ولا تُصعِّر خدَّك للناس ولا تِمْش في الأرض مرحًا إنَّ الله لا يحبُّ كل مختال فخور* واقصد في مَشْيك واغضُض من صوتك إنَّ أنكر الأصوات لصوتُ الحمير﴾ [5].
- قوله:" إذا ما اتَّقَى اللهَ الفَتَى " معنى إسلامي خالص.

٥- يقول امرؤ القيس:

حتَّى أباحَ ديارَهم فأبادَهُم فعمُوا فَهُم لا يَهْتدون سبيلًا[6]

---

(١) ديوانه بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص٣٣٦.
(٢) محمد، آية: ٣٠.
(٣) الأعراف، ١٩٩.
(٤) البقرة، بعض آية ٢٥٥.
(٥) لقمان،الآيتان: ١٨، ١٩.
(٦) ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص٣٦١.

وهنا يرن في آذاننا قوله تعالى: ﴿وحسِبُوا ألا تكونَ فتنةٌ فعمُوا وصمُّوا...﴾ [١]، وقوله تعالى ﴿لا يستطيعون حِيلة ولا يهتدون سبيلًا﴾[٢].

ويدخل ضمن النَّظم - في رأينا - قافية القصيدة، أو تشابه الرَّويِّ مع فواصل إحدى سور القرآن الكريم، والنموذج الذي نُقدِّمه هنا قصيدة لامْرئ القَيْس من نسخة الطُّوسي عن رواية المفضَّل الضبِّي ممَّا لم يروه الأصمعي، وأوَّل القصيدة:

أحارِ بنُ عمرٍو كأني خَمِرْ ... ويَعدُو على المرءِ ما يأتَمِرْ [٣]

وأما السُّورة القرآنيَّة فهي سُورة "القمر"، وواضُح من تشابه الرَّويِّ مع فواصل السُّورة في الوزْن، وتشابُه الرَّويِّ مع بعض فواصل السُّورة في اللفظ أنَّ القصيدة لم تُنْتج زمنَ امْرئ القَيْس، وإنما أُنتجت بعد نزول القرآن الكريم، كما أتى الضَّرب في القصيدة على نفس وزن الفاصلة "فَعُو"، ليس هذا فحسب، وإنَّما أتى وزن القصيدة على بحر المُتَقارب محذُوف الضَّرب:

فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعو

وتفعيلة البحر كما نرى قصيرة مكرَّرة، وآيات السُّورة - كما نرى - قصيرة كذلك، وسنعرض بعض الأمثلة لما نقول:

أ- قال تعالى: ﴿سيعلمون غدًا من الكذَّاب الأشِر ﴾ [٤].

وقال الشاعر:

ألصُّ الضُّروس جنيُّ الضُّلوع ... تبوعٌ طلوبٌ نَشِيطٌ أشِرْ [٥]

ب- قال تعالى: ﴿فتولَّ عنهم يوم يدع الدَّاع إلى شيء نُكُر ﴾ [٦].

وقال الشاعر:

فيُدْرِكُنا نَعمٌ داجنٌ ... سميعٌ بصيرٌ طلوبٌ نَكِرْ [٧]

---

[١] المائدة، الآية: ٧١.
[٢] النساء، الآية: ٩٨.
[٣] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٥٤.
[٤] القمر، الآية: ٢٦.
[٥] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٦١.
[٦] القمر، الآية: ٦.
[٧] الديوان، ١٦٠.

ولا يخفى على باحث مجيء الكلمتين "سميع"و"بصير" مع كلمة "نُكر"، والكلمتان تأتيان في القرآن الكريم بترتيبهما الذي أتى به الشاعر في القصيدة: السميع أوّلًا والبصير ثانيًا.

ت- قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنَّهم جرادٌ مُنتشر﴾ [١].

وقال الشاعر:

وأركبُ في الرَّوع خَيْفانةً كَسَا وجْهَها سَعفٌ مُنْتَشِرْ [٢]

ث- قال تعالى: ﴿فقالوا أبشرًا منَّا واحدًا نتَّبعه إنَّا إذا لفي ضلال وسُعُر ﴾ [٣].

وقال الشاعر:

وسالفةٌ كسحوق اللُّبا نِ أضرمَ فيها القَويُّ السُّعُرْ [٤]

ج- قال تعالى: ﴿فدَعا ربَّه أنِّي مغلوبٌ فانتصر ﴾ [٥].

وقال الشاعر:

فأنشبَ أظفارَه في النَّسا فقلتُ: هُبِلتَ ألا تَنْتَصِرْ [٦]

ح- قال تعالى: ﴿ سيُهزمُ الجمعُ ويولُّون الدُّبُر ﴾ [٧].

وقال الشاعر:

لها ذَنَبٌ مثلُ ذَيلِ العَروسِ تَسُدُّ بها فرْجَها مِن دُبُرْ [٨]

---

[١] القمر، الآية: ٧.
[٢] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٦٣.
[٣] القمر، الآية:٤.
[٤] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ١٦٥.
[٥] القمر، الآية:١٠.
[٦] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ١٦١.
[٧] القمر، الآية: ٤٥.
[٨] ديوانه، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٦٤.

خ- قال تعالى: ﴿في مَقْعدِ صدقٍ عند مَليكٍ مُقْتدر ﴾ [١].

وقال الشاعر:

لهـــا جبهـــةٌ كَـــسَراةِ المِجَـــنِّ حدَّقَـــــهُ الصـــــانعُ المُقْتـــــدرْ [٢]

د- قال تعالى: ﴿ ففتحنا أبوابَ السَّماء بماءٍ مُنهمر ﴾ [٣].

وقال الشاعر:

وللسَّـــوطِ فيهـــا مجـــالٌ كمـــا تَنَـــــزَّلَ ذو بـــــرَدٍ مُنْهَمِـــــرْ [٤]

هذا، وقد ذكر محقّق الديوان للشاعر بيتًا آخر ورد كما عنده في "العِقد الثَّمين" هو :

وسدَّ بحيثُ ترْقى الشمسُ سدًّا ليـــأجوجٍ ومـــأموجَ الجبـــالا[٥]

شاهد بيِّن الوضع:

ونقف عند شاهدٍ بيِّن الوضْع، وهو من العجائب في هذا الأمر، ذلك قول امْرئ القَيْس:

لا يابنَ غيلانَ اقتلوا بابنِ خالِكم وإلا فمـــا أنـــتُم قبيـــلٌ ولا حَـــوَلْ

فإنْ تقتُلوا مِثْلي فقد قَتَل الهوَى جَميلًا وبِشْـرًا وابنَ غيلانَ قد قَتَلْ

قال الأعْلم بعد البيتين:

"جَميلٌ هو جَميلُ بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْري صاحب بُثَينة المتوفَّى سَنة ٨٢هـ"([٦]).

والعجيب أنَّ هذا لم يُثر اهتمامَ الأعْلم على الرُّغم من أنَّه نَصَّ على أنَّ جميلًا المذكور في الشَّطْر الثاني من البيت الثاني هو جميل بن معْمر، وقال "المتوفَّى سنة ٨٢هـ".

---

[١] القمر، الآية:٥٥.

[٢] ديوانه، ١٦٥.

[٣] القمر،١١.

[٤] ديوانه، ١٦٦.

[٥] ديوان امْرئ القَيْس بن حجر الكندي، لأبي الحجَّاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري، ص٤٨٩.

[٦] السابق، ص٤٧٩.

٧ - خُلاصة البحث:

بعد هذا العرض الموجز للإشارات الدينيَّة في شِعر امْرئ القَيْس، يُمكن أن نُقدِّم خُلاصة البحث فيما يلي:

أولًا: تعرَّض الشاعر امْرُؤ القَيْس لكثير من المظاهر الدينيَّة في عصره، لكن لم تُترجم هذه الرؤية إلا في جزءٍ يسير من شِعره المحقَّق، فرأينا إشارات إلى النصرانيَّة، وأخرى إلى الوثنيَّة، وثالثة إلى الحنيفيَّة، ورابعة تشابهتْ مع العصور الإسلاميَّة لفظًا ونظمًا.

ويرى الباحث أنَّ خُفوت صوت الديانات العربيَّة قبل الإسلام يمكن توجيهُه إلى أمرين، الأوَّل: عدم وجود الشِّعر الذي عبَّر عن هذه الحياة الدينيَّة.

الثاني: وجوده، لكنه ضُيِّع عمدًا أو قصدًا لما يحمله من ألوان الوثنيّة التي حاربها الإسلام، فما كان للمسلمين أن يتركوا الشعراء يروون هذا الشِّعر الذي مات في سبيل القضاء عليه آلاف منهم في شتَّى بقاع الجزيرة العربيَّة.

ثانيًا: نبَّه كثير من الباحثين والمستشرقين إلى ضعف صورة الحياة الجاهلية في الشِّعر الجاهليِّ بعامَّة، وفي شِعر امْرئ القَيْس بخاصَّة، وكان من هؤلاء مرجليوث[1]، وطه حسين، وبعض ما تابعهما، فشكَّكوا في هذا الشِّعر واتهموا العصور الإسلاميَّة بوضعه، وقد استندوا إلى أسباب كثيرة في ذلك أهمها: ضعف صورة الحياة الدينيَّة في الشِّعر الجاهليِّ، وكذا الحياة الاقتصاديِّة، والحياة الاجتماعيِّة، بالإضافة إلى اختلاف لُغة الشَّمال عن لُغة الجنوب، أي اختلاف لغة امْرئ القَيْس القحطانيِّ عن لغة الشَّمال العدنانيَّة التي جاء فيها شعرُه.

ثالثًا: كانت الإشارات الدينيَّة الإسلاميَّة سببًا مباشرًا من أسباب الشكِّ في شعر امْرئ القَيْس، وأُخذت القضية على عمومها دون تفريق بين شاعر وشاعر، أوعصر وعصر، فما كان من الباحث إلا أنَّ فصَّل القول في هذه القضية من خلا شعر امرئ القيس، وفصَل بين نوعين من هذه الآثار الإسلاميَّة هما الألفاظ والنَّظم، فما كان من هذه الآثار راجعًا إلى اللفظ فقد سَلِمَ شعرُ الشاعر فيه من الوضع والنَّحل، وما كان راجعًا إلى النظم فقد غلبَ عليه أثرُ الوضع والنَّحل.

رابعًا: إنَّ دراسة قضية الوضْع في الشِّعر الجاهليِّ مرهونة بكثير من العوامل والمقاييس والإجراءات، ولا يكمن أن تُؤخذ جملة واحدة، فلكل شِعر ظروفه التاريخيَّة والفنيَّة والدينيَّة، ولكل شاعر ظروفه مع النقاد والباحثين على مرِّ العصور، لذلك فإنَّ الحُكم على الشِّعر الجاهليِّ بأنه موضوع في العصور الإسلاميَّة يُعدُّ حُكمًا تشوبه العموميَّة التي لا تتناسب مع عصر امتدَّ عدَّة قرون، مع اختلاف البيئات التي مثلته واتساعها.

---

[1] انظر في ذلك:

D.s.Margoliouth, The origins of Arabic Poetry, journal of the Royal Asistic, July 1925,p.434 .

مراجع البحث

أولًا: المراجع العربية

ـ **أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي**، جرجس داود داود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨١م.

ـ **أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام**، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٥.

ـ **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، طبعة دار الثقافة، تونس.

ـ **امْرُؤ القَيْس أمير الشعر العربي في الجاهلية**، دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه، لعلي إبراهيم أبو زيد، دار الكتاب الجامعي، العين أ.ع.م، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

ـ **تاريخ العرب**، لفيليب حتي، وإدورد جرجي، جبرائيل جبور، دار غندور، بيروت، ط٤، ١٩٦٥م.

ـ **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، لأحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٥.

ـ **دلائل الإعجاز**، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني(القاهرة) ودار المدني(جدة)، ط٣، ١٤١٣هـ =١٩٩٢م.

ـ **ديوان امْرئ القَيْس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤.

ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، حققها وضبطها ووضع فهارسها: لمصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة الرياض الحديثة، المملكة العربية السعودية، د.ت.

ـ **الشعر العربي بين الجمود و التطور**، لمحمد عبد العزيز الكفراوي، دار نهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة ،ط١٩٧٣م .

ـ **شرح ديوان امْرئ القَيْس بن حجر الكندي**، لأبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيس المعروف بالأعلم الشنتمري، اعتنى بتصحيحه الشيخ بن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة عام ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م.

ـ **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، للويس شيخو، دار المشرق، بيروت، ط٤.

ـ **العرب قبل الإسلام**، لجرجي زيدان، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.

ـ **في الأدب الجاهلي**، لطه حسين، دار المعارف، مصر.

ـ **كتاب الأصنام**، لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق:أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م.

ـ **المُفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، لجواد كامل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

ثانيا: المراجع الأجنبية

- D.s.Margoliouth, The origins of Arabic Poetry, journal of the Royal Asistic, July 1925 .